

المجلد: 06 العدد: 01/جوان 2022. ص 562/571

ملاحم النزوع الأسطوري في الرواية المغاربية
رواية "اغتنصاب محظية" لعائشة الأصفر أنموذجا

The mythological features of the Maghreb novel The Rape of a Concubine by Ayesha AlAsfar as an example

إسمة ميسوم

i.missoum@univ-boumerdes.dz

جامعة بومرداس
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2022/06/02

تاريخ القبول: 2022/03/21

تاريخ الاستلام: 2022/01/08

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن ملاحم النزوع الأسطوري في الرواية المغاربية، عبر تتبعنا لأشكال هذا النزوع في رواية " اغتنصاب محظية " للروائية الليبية عائشة الأصفر بعد تحديد مفهوم الأسطورة والعلاقة بينها وبين الشعائر أو الطقوس، ثم التطرق إلى تحوّل بنيتها التي اكتسبت معنى حديثا، فخرجت عن طابعها الغيبي الذي تحكمه الآلهة أو أنصاف الآلهة، أو الشخصيات الخارقة، لتتلقّن بطابع العصر وتتسلّل بين البشر فتظهر في سلوكياتهم اليومية وتصوّراتهم وأحلامهم. فقد أعادت الرواية المغاربية المشهد الأسطوري القديم عبر تقنية التناص إتما عن طريق التضخيم أو التقليل، أو عن طريق المحاكاة أو المعارضة لنقد الواقع وإظهار زيف الأفراد والمجتمع، أو لكشف ما يحويه التفكير الأسطوري وكذلك الخرافات من مغالطات، تسهم بشكل كبير في تجهيل الشعوب، وإحباط عزمها في المطالبة بالتغيير أكثر من كونها وسيلة للهروب من واقع مرير إلى عالم مثالي يحلم به الأفراد. كلمات المفتاحية: الأسطورة، الطقوس، الرواية، التحول، البنية.

Abstract:

This paper aims to uncover the features of the mythological tendency of the Maghreb novel, by tracking the forms of this tendency in the novel of *The Rape of a Concubine* by Aisha Al – Asfar after defining the concept of the myth and the relationship between it and rituals, and then turning to the transformation of its newly acquired structure.

The Maghreb novel restored the ancient mythological landscape through the technique of intertextuality, either by inflection or subjugation ; or by mimicking or opposing either to critique reality and show the falseness of individuals and society or to expose the fallacies of mythological thinking , which contribute significantly to the ignorance of peoples, frustrating them in demanding change rather than as a means of escaping a bitter reality.

Keywords: myth; ritual; novel; transformation; structure.

مقدمة :

ارتبطت الأسطورة منذ نشأتها بالحكي أو القص، فاعتبرت أحد روافد الإبداع الأدبي، وقد أدرك الروائي المغاربي أهميتها وقدرتها على توفير حقول خصبة، وفتح آفاق أوسع للكتابة تتعالى عن التماذج الكتابية النمطية السائدة،

ما جعل الرواية المغاربية تتجه نحو استدعاء أساطير موعلة في القدم، وأخرى حديثة، لتأثيث عالمها التخيلي ومعالجة قضايا الفرد المغاربي في زمن التمزق والتشظى والاعتراّب والعزلة.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن ملاحم النزوع الأسطوري في الرواية المغاربية، من خلال الكشف عن أشكال توظيف الأسطورة "في رواية اغتنصاب محظية"، وإبراز وعي الروائية الليبية عائشة الأصغر بخطر وأهمية الأساطير في بناء الوعي الجمعي، حيث أثبتت عالمها الروائي باستحضار أساطير قديمة وحديثة، نقلتنا عبرها من عالم الواقع إلى عالم آخر لا يحكمه عقل ولا منطق، لنطرح على أساس ذلك إشكالية البحث: فيم تجلت ملاحم توظيف الأسطورة في الرواية المغاربية؟ وماهي أهم الأشكال التي استحضرت في رواية "اغتنصاب محظية"؟، وقد استعنا بالمنهج البنوي لاسيما فيما تعلق بتحول بنية الأسطورة وأشكال توظيفها في الرواية لقدرته على قراءة التصوّر الأدبية وتحليلها بطريقة منهجية تعني برصد البنية الداخلية للنص الأدبي واستجلاء أبعاده الاجتماعية والتفسيّة الكامنة وراء العناصر الأدبية.

1. مفهوم الأسطورة :

اشتق مصطلح الأسطورة (Myth) من كلمة (Muthos)، وهي كلمة يونانية تدلّ على قصة لها علاقة بالآلهة، والكائنات التي تفوق البشر قدرة، كما تعني التعبير بالكلمات عما هو مقدس، تدور أحداثها في زمن البدايات (بداية العالم)، زمن مقدس لا تحكمه قوانين الزمن المتعارف عليها، فهي تاريخ مقدس، إعلان لما حدث في الأصل، وكأنها تؤسس للحقيقة المطلقة ولأنها ترتبط بالمقدس لا تقبل الرّفص أو الاعتراض. ما يعني أن واضعها - سواء أكان فردا أم جماعة- مؤمن تماما بحقيقتها، ولا شك أو حيرة أو تردّد لديه تجاهها²، لذلك كان الاعتقاد بواقعية الأسطورة ومن ثمة تقديسها هو ما يميّز الأسطورة عن الخرافة وغيرها من السرود التي اتخذت المتخيل مكونا أساسيا في بنيتها.

ظهرت الأساطير نتيجة عجز الإنسان البدائي عن تفسير ظواهر الطبيعة والتحكم فيها وكانت دليلا على عدم استسلامه وإصراره على اكتشاف سرّ هذه الظواهر ومن ثمّ تطويعها والتحكم فيها، وقد أكد عبد المنعم تليمة هذه الفكرة بقوله إنّ الإنسان "لم يستسلم... بل لقد تخطى كلّ ذلك بأداة فذة خلق بها عالما جديدا، ولم يكن هذا العالم المخلوق وهما، وإنما كان هدفا عجزت أدوات الإنسان وخبرته العلمية عن خلقه. وكانت تلك الأداة الفذة في يد الإنسان البدائي هي الأسطورة"³ وارتبط مصطلح الأسطورة (Myth) بكلّ ما هو مقدس فهي حكاية مقدّسة تروي تاريخا مقدّسا، أو حدثا جرى في الزمن البدائي، "وتعلّل كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل مآثر اجترحتها كائنات عليا، اتّصفت أفعالها بالقدسيّ والخالق"⁴، وهي حسب سعيد علوش "استغراق في فهم النظم الكونية، كما تبدو للإنسانية أخلاقيا وميتافيزيقيا"⁵ لقد حلت الأسطورة محل العلم في وقت كان فيه عقل الإنسان قاصرا على إدراك الحقائق وتفسيرها تفسيراً علمياً، لذلك ارتبطت أساطير النشوء بشخصيات وأحداث خارقة، اكتسبت طابعا دينيا مقدسا عند الشعوب التي أنشأتها واتخذتها بعد ذلك عقيدة تحافظ عليها بتجسيدها عبر الطقوس التي تستعيد الأحداث وشخصيات الآلهة.

كما يساهم الخيال الجمعي في استحداث الأساطير بأنواعها المختلفة بما فيها أساطير النشوء التي تروي قصصا حول الآلهة والكائنات المقدّسة التي تعتقد بها الجماعة، ولهذه الأساطير يقول عبد الحميد بورايو "علاقة وطيدة بالطقوس الاحتفالية الموجهة لعبادة الآلهة"، وقد أكد "جيمس فريزر" (James Frazer) هذا الارتباط بين الطقوس والأسطورة لما عالج الميثولوجيا الإغريقية بوصفها وجهها من وجوه الديانة الإغريقية، وقال "بتبعيّة الأسطورة للطقوس ونشوءها عنه... وقد اكتسبت تلك المراسيم / الطقوس بفعل الزمن سمة القدسية، التي تحوّلت بفعل الزمن أيضا، إلى ما عُرف فيما بعد بالأديان"⁷ وهو ما يشير إليه إيريك فروم (Erich Fromm) في سياق حديثه عن أهمية السلطة الدينية فالأسطورة إذا كانت "تعدّ محترمة بوصفها جزءا من ديننا، أعطيناها اعترافا تقليديا بأنها جزء من الموروث المبجل، فإذا لم تكن تحمل هذه السلطة الدينية عدّت تعبيرا طفليّا عن أفكار الإنسان قبل أن ينوره العلم. ومهما يكن، فالأساطير سواء أكانت محطّ تجاهل أم احتقار أم احترام فالمعتقد أنّها تنتمي إلى عالم غريب كل الغربة عن تفكيرنا"⁸، تلك أنّها تروي أحداثا مثيرة تكون مستحيلة في الأغلب، لا يقبلها العقل في عالم من نوع خاص تحكمه قوانين خاصة وتشكّل "مجموعة كئيبة عضوية، مجموعة مصنّفة ذات بني شكلية تسقط من حسابها، أو تتنافى مع أركان الزمن التي نحسب

حسابها اليوم الفواصل المنتظمة والانقسامات، التقدم والسياق، الزمن والتطور، التاريخ والتغير. ولا توجد في الأسطورة خطوط فاصلة دقيقة بين الحاضر والماضي والمستقبل⁹، كونها تتعالى عن الزمن الكرونولوجي وتتجسد ضمن عالم خاص.

2. علاقة الأسطورة بالطقس:

اكتسبت الأسطورة طابع القداسة، لاسيما في الأوساط الاجتماعية البدائية التي كانت تؤمن بأن الأحداث الواقعة في الزمن البدئي (الزمن المقدس) تعد سببا رئيسا في وجود الكون والإنسان على حد سواء، ولعل أهمية عنصر الاعتقاد بالأساطير هو ما جعل الدكتور "أحمد شمس الدين الحجاجي" يشير إلى العلاقة الوطيدة بين الأسطورة والشعيرة باعتبار أن هذه الأخيرة هي التي تسمح لنا بالتمييز بين الأسطورة وغيرها من ألوان القصص¹⁰، فإذا كانت الأسطورة تمثل الجانب الميثولوجي القصصي باعتبارها أساسا على الحكيم، فإن الشعيرة أو الطقس هي الجانب التطبيقي ومحاكاة لما وقع في الزمن المقدس وعليه، فهي لم تمثل لمعتقبي والمعتقدين بها مجرد قص بل حقيقة معاشة جسدت أحداثها آلهة وأنصاف آلهة في أمكنة تختلف عن أمكنتنا المألوفة وأزمنة ذات خصوصية تختلف عن زماننا الكرونولوجي.

3. تحولات بنية الأسطورة :

يطرح حسن مجراوي إشكالية تتعلق باستمرار تواجد الأسطورة بيننا، لاسيما بعد الفتوحات التي حققتها العلوم الحديثة في مجالات مختلفة، صاغها في مجموعة تساؤلات "هل زالت دولة الأسطورة تماما لصالح دولة العلم الكونية الحديثة ؟ وهل انتصرت النزعة العقلانية بعد هذه القرون الطويلة من صراعها مع الأسطورة ؟ وهل لم يبق للأسطورة أي أثر محرك في حياتنا الحديثة ؟"¹¹.

يجمع التقاد على أن عصر الأسطورة قد ولّى، بانتهاء الظروف الاجتماعية التي جعلت منها نوعا أدبيا سائدا، لكن هذا لا يعني انتهاء مبررات وجودها في النفس البشرية "باعتبارها إحدى إمكانيات بلورة مناطق معينة من الوعي واللاوعي في هذه النفس وصياغتها"¹²، إذ لا تزال الكثير من السلوكات الأسطورية تعيش أمام أعيننا على الرغم من التقلية الكبيرة التي عرفها فكر الإنسان المعاصر ذلك، نتيجة تجذر الفكر الأسطوري فيه والذي يمكننا اعتباره مكونا أساسيا من مكوناته إلى جانب الفكر المتمدن.

لقد اكتسبت الأسطورة معنى حديثا، فخرجت عن طابعها الغيبي الذي تحكمه الآلهة أو أنصاف الآلهة، أو الشخصيات الخارقة حيث "أصبحت كامنّة في داخل البشر وفي لمسات علاقاتهم البسيطة وسلوكاتهم اليومية وتصوراتهم وأحلامهم"¹³ وفي حساسيتهم أمام كل ما يتعلق بالدين الذي توارت وراءه كثير من الأساطير فظلت تسري في أوساطنا إلى يومنا هذا، فقد اقتصر دور العلم على البحث في مظاهر العالم وتسخير قوانينه لمصلحة الإنسان، بينما يتطلع الدين إلى ما وراء مظاهر العالم، ويبحث في المعنى والغايات النهائية وهو بذلك حسب فراس السواح يبدأ من حيث ينتهي العلم¹⁴ أو بالأحرى من حيث تعجز قوانينه عن تقديم تفسير منطقي للظاهرة، خاصة في ما يتعلق بالمواضيع التي لا يمكن إخضاع قوانينها للبرهنة والاختبار، هنا في هذا المجال تظهر الأسطورة بقوة لتمارس سلطتها فبقيت "متحصنة في ذلك الموقع القوي الذي لم تستطع دولة العلم والعقل الحديثة دكه حتى الآن، وهو الدين"¹⁵ ممثلا في المؤسسات الدينية التي اتخذت من الأساطير القديمة مطية لتمرير إيديولوجيتها، فالمشكلة في أديان اليوم يقول حسن مجراوي : " تحوّل الأساطير إلى دوعا تخدم إيديولوجية جامدة لا تقبل التغير. ففي مقابل الخلق الدائم والتلقائي للأساطير في الزمن الماضي، صارت الأساطير إلى حالة ثابتة، تعكس جملة من المعتقدات التي تحرسها المؤسسة الدينية وتعمل على عدم تعريضها للتفسير المنفتح أو التأويل... فيتم تحويلها إلى جملة من القناعات الداخلية السطحية، وإلى جملة من الطقوس التي فقدت خواها ودورها ومعناها. وهنا يتحوّل الأمان الطوعي إلى إيمان مفروض من الخواء النفسي"¹⁶، وهنا كذلك تظهر خطورة الأساطير وبنية التفكير الأسطوري المبني أساسا على اللاعقلانية.

تستغل الأنظمة السياسية بؤرة اللاعقلانية الكامنة في النفس الإنسانية، والتي لا تتطلب برهانا عقلانيا بقدر ما تتطلب إقناعا عاطفيا انفعاليا عبر سحر الكلمة، لتمرير قناعاتها الفكرية ومخططاتها السياسية، كان هذا اتجاه هتلر مثلا في نشر فكره النازي ليستولي "على نفوس وعقول أكثر شعوب أوروبا نزوعا نحو التفكير العقلاني الصارم"¹⁷، وسار على نهجه الكثيرون في العالم فأعادوا واحدا من مظاهر الأسطورة في مجتمعاتنا المعاصرة، والمتمثلة في الإيديولوجيات التي

قامت بناءً على أساطير مختلفة، وعرفت بالإيديولوجيات الأسطورية (mytheology) وتتجلى في تشظيات تعمل بتجانسها على أن تتركب ثانية بطريقة متواصلة أشكالا صغيرة قد تظهر مرة التحام مجموعة قليلة أو كتلة شعب من ناحية ثانية، فأسطورة الميز العنصري التي انبثقت منها أسطورة الجنس الآري، والتي عرفت خاصة في ألمانيا، لها أصول أسطورية ترجع إلى توق الإنسان إلى إظهار أصوله القبيلة، فالآري يمثل الكائن المقدس (Primordial)، والبطل التبليل الذي يتحلّى بكثير من الفضائل، وهو يمثل أيضا النموذج المثالي الذي يجب الاقتداء به لاستعادة الصفاء والتبليل¹⁸. ركز هتلر على هذا النموذج لتمرير فكره النازي وعيا منه بخطورة الأسطورة وقابلية الإنسان للنسيان وراء الأفكار القائمة على خلفية دينية.

كذلك اعتمد "كارل ماركس" (Marx, Karl (1818-1883)) في نظريته على واحدة من أشهر أساطير البعث في العالم المتوسطي الآسيوي والتي تنصّ على عودة أو بعث المسيح المخلص من جديد، ممثلاً حديثاً في طبقة البروليتاريا التي حاولت - حسب ماركس - تخلص العالم من المعاناة الاجتماعية، بتغيير النظام الأطولوجي "statut ontologique" وهذا بالقضاء على النظام الرأسمالي¹⁹، عرف الفكر الماركسي رواجاً واقتنع أنصاره بوجود القضاء على النظام الرأسمالي القائم على تكريس التفاوت الاجتماعي وتعويضه بنظام يضمن العدالة الاجتماعية.

وعمل "أندريه أليكساندروفيتش جدانوف" (Andrei Alexandrovich Zhdanov) منذ 1946، على تثبيت عقيدة. أنّ "ماركس" (Marx) و "إنجلز" (ingels) لم ينجحوا في تأسيس فلسفة جديدة مبيّنة كيفيات لكل الأنظمة [الفلسفية] السالفة، مما بلغت تقدّميتها فحسب، والإشارة إلى تفوق أدبهم التقديمي الثوري الغني بالأفكار الأشدّ فتاءً من بين جميع آداب كل الشعوب وكل البلدان²⁰.

ودعم هذا التوجّه مجموعة من كبار المفكرين والفلاسفة في أوروبا من قبيل "ماركس مولر، وريبنان، وتشارلز تيل، ودارون، وبنجان كيد، وامرد وفاتيل. وجميع هؤلاء طوّروا وأبرزوا المواقف الجوهرانية في الثقافة الأوروبية معنيين أن الأوروبيين ينبغي أن يحكموا وعلى غير الأوروبيين أن يحكموا، ولقد حكم الأوروبيون بالفعل²¹"، وما أسطورة "الأصلائي الكسول"²²، التي أشار إليها إدوارد سعيد في كتابه "الثقافة والإمبريالية" إلا مثال حيّ يعكس سلطة الإمبريالية، وقدرتها على خلق أساطير تخدم إيديولوجيات شيدتها الجهود الاستشراقية، بهدف تمرير خطاب الحداثة الغربية بالاستعانة بوسائل مختلفة بما فيها نوع من الديماغوجية الدينية، لتقديم الإنسان الغربي في أبهى صورة بفعل حضارته التي حصنته من كل أنواع التخلف والتبعية.

لقد استغلت أساطير الأصول التي تهدف إلى "تبرير المؤسسات الاجتماعية القائمة وتحذيرها في البدايات الميثولوجية الأولى"²³ وذلك بهدف إضفاء الشرعية على الأنظمة السياسية الحالية، وطبعها بهالة من القداسة تدفع الشعوب إلى تقبلها، ولتحقيق الغرض نفسه تم تجنيد وسائل الإعلام المختلفة التي تقوم بأسطرة الشخصيات إما بتحويلها إلى نماذج مثالية بالغة التأثير أو العكس، في حين أنّها في الأصل تختلف عن الصورتان وذلك إرضاء للجمهور.

هذا وتبعث الأسطورة من جديد عبر الخيال الشعبي، فتكون ردّة فعل عن قمع السلطة أو تردّي الأحوال الاقتصادية أو السياسية، وتشكّل بذلك فسحة للهروب من واقع متأزم معيش، إلى عالم آخر تحكمه قوى أخرى تفوق قوتها وقدراتها عالم البشر، وهي في مجملها ذات طابع ديني، ففي فترات المحن وفي عزّ الأزمات تنبعث الأسطورة من جديد وتنبعث معها التنبؤات القديمة، فينساق وراءها الأفراد أملاً في الخلاص، لعلّ أشهر هذه التنبؤات أساطير الخضر وانبعاث فكرة المخلص، والاعتقاد بقدرات الأولياء الصالحين خاصة فيما يتعلق بالتداوي والشفاء من مختلف الأمراض.

تشكّل مجمل هذه الأساطير التي اصطلح على تسميتها بالأساطير الحديثة، الركيزة الأساسية للأدب المعاصر لاسيما الرواية، فتفاوت الروائيون في درجة استثمارها كل حسب وعيه وإدراكه لمعناها ومغزاها، والروائية عائشة الأصغر واحدة من الروائيين الذين استهواهم هذا العالم، فاستثمروا شبكة من الأساطير عن وعي بحمولتها السياسية والاجتماعية مع إدراك معناها المعاصر ومغزاها.

4. أشكال توظيف الأسطورة في رواية "اغتنصاب محظية":

إذا كانت بنية الأسطورة تتعالى عن الواقع، فإنها تظهر عادة من خلال سرد يشخص بعضاً من واقعنا المعيش، فتتأهق معه إلى درجة يصعب الفصل فيها بين حدود الأسطوري والواقعي خاصة في الروايات الحديثة التي وظفت ملامح الأسطورة في أشكال أهنها: أ. استثمار أحداث أسطورية:

لم يكن لجوء الرواية المغاربية للأسطورة قجاً عقياً، بل جاء ليستثمر مختلف المعارف والإيجاءات والرموز التي تحيط بها بهدف إثرائها عبر استقراء تلك الرموز بما يخدم الزاهن ومعضلاته، فتتحقق بذلك معادلة تربط المؤلف/باللأمالوف الأسطورة/بالواقع المعيش، أين يغدو اللأمالوف ممثلاً في الأسطورة والواقع، متشابهين لدرجة التآهي، ذلك أن صراع الآلهة مثلاً، الذي كثيراً ما تصوّره الأساطير القديمة لا يمثل صراعاً أو قتالاً حقيقياً بل يحيل إلى نزاع بين عناصر مختلفة، أو بين عواطف نفسانية مثل الحب والعداوة، وهو يمثل شكلاً آخر لصراع آخر تحتي أبطاله بشر فطروا على حب الذات الذي كثيراً ما يتودهم للصدام والظلم، فتظهر قوى الشر في مواجهة قوى الخير. ولئن كانت "صراعات الآلهة واضحة المعالم، ومحسومة الختام، فإن صراعات البشر غامضة، ومملّة بالإشكال والالتباس"²⁴ وقد حقق التجاور بين الواقعي والأسطوري تفعيلاً للمكون العجائبي في الرواية ودعماً له، فالسرد "حينما يستدعي الأسطورة لينجّ بها في ثنايا الواقعي، فإنه يخرجها من سياقها الذي أنتجت فيه ويقحمها في سياق مغاير وجديد يحدّ من طبيعتها الميتافيزيقية، ويقدمها بوصفها وسيلة جديدة قادرة على تقديم تشخيص جريء للواقع، فضلاً عن إسهامها في توليد بنية سردية تذوب في صلبها الحدود بين الواقعي واللاواقعي، الطبيعي والفق الطبيعي، المرنّ واللامرنّ"²⁵ على هذا الأساس راهن الروائي المغاربي على الطابع الترميزي للأسطورة، فاستدعى أساطير موعلة في القدم وأخرى حديثة محاولاً من خلالها إعادة كتابة تاريخ جديد، لا يختلف كثيراً عن الأسطورة.

كان هذا مذهب عائشة الأصفر في رواية "اغتناب محظية" في نقدها للأوضاع السياسية والاجتماعية والقيم الأخلاقية حيث استثمرت الأسطورة فكانت وسيلتها للكشف عن الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للبلد ما قبل الثورة والمؤامرة التي حيكت ضدها بفعل عمالة السلطة وتحاذل الشعب وسذاجته، فصوّرت الغرب في صورة ساحرة تمتلك آلهة البحر، استغلت سذاجة أصحاب الأرض وعمالة سلطانهم، فأرسلت وكيلها أنريكو بريتشاني الذي برع في تطبيق توصياتها"²⁶ وهي بهذا لم تفسح لها مجالاً للحركة داخل الرواية باعتبارها ساحرة، ولا للآلهة تمارس سلطتها فعلياً بل اكتفت بالإشارة إليها وإلى مشروعاتها من حين لآخر، وتركت المجال مفتوحاً لشخصية واقعية تنوب عنها. لتجمع في سياق واحد بين ثلاث شخصيات: إحداهما أسطورية (الآلهة) والثانية خرافية (الساحرة) والثالثة واقعية (أنريكو بريتشاني) تشاركت في مشروع واحد، وهو ما يحسب للروائية التي جعلتنا ننقل من المؤلف إلى اللأمالوف دون مقدمات، الأمر الذي يعمّق صدمة القارئ بنقله بين تخوم الواقع والأسطورة.

كما استدعت الروائية أسطورة الإخوة الأعداء السومرية التي وردت تفصيلها في الكتاب المقدس (التوراة) وفي القرآن الكريم عبر تصويرها لعلاقة الأخوين (زايد) و(بوستة) التي لم تكن علاقة اعتيادية طبيعية بين أخوين من صلب واحد حيث شكل تواجد (زايد) على هيئة جلدة تشبه أصبعاً زائداً في راحة يد (بوستة) شعوراً دائماً بالتبعية، بينما شكل تواجد هذا الأصبع الزائد لـ (بوستة) عقدة نقص جعلته يمتقه فيقوم ببتره والتخلص منه متجاوزاً الألم المادي. إضافة إلى أسطورة المقاتلات الأمازونيات الشرسات التي كشفت عنها فسيفساء من شمال الشام، وجدران كهوف تاسيلي، وهي أسطورة عن "نساء مقاتلات قترن قطع أثدائهنّ للتمكن من استخدام القوس والنبال دون إعاقة"²⁷ للإحالة على قوة المرأة وشجاعتها وشراستها ودهائها حين تقرّر الثأر والانتقام لكرامتها وشرفها، وكان هذا قرار محظية التي خضعت لبوستة بنية الانتقام لأبيها وشعبها.

استدعت الأمازونيات في شخص شبح (دهيا) التي عرفت باسم (الكاهنة) ووظفت الأشباح "كغواية ترتطم بحساسية لها القدرة على مقارعة الاندهاش وإفراز الحيرة والتردد.. وهو تيمة عالمية، ومن الأشياء الثائرة.. التي أعطت الولادة لجنس أدبي"²⁸ واستغلت كتيمة في المحكي العجائبي وظهر بشكلين شبح ذاتي ويظهر من خلال التوهم أو الهذيان وشبح موضوعي يبرز فجأة ويتطلب شاهدين²⁹ يدخل شبح دهيا في إطار الشكل الثاني فقد تشارك زايد

وصاحب العصا المندفع في رؤية شبح الكاهنة الذي كان يظهر فجأة ثم يختفي³⁰ في مشاهد مثيرة للعجب والخيال تتشارك فيها الشخصيتان والقارئ على حد سواء.

ب. استدعاء رموز أسطورية :

يظهر في استدعاء الرواية لرموز أسطورية، أنها لا تهدف من خلالها إلى "التعبير عن الزاهن فحسب، بل ما يطهر هذا الزاهن من لوثة العاء التي تفتك به وما يعيد تكوينه من جديد أيضا أي ما يعبر عن توجهه إلى المستقبل"³¹، من بين هذه الرموز الأسطورية نذكر:

ب. 1 التوبة :

تحفل الأساطير بما يعرف بالتوبة التي تحدّد مسبقا قدر ومسار الأبطال، و" كثيرا ما يتلبس الجانب العجائبي في الأسطورة الإغريقية بفكرة "القدر"، التي تتبدى عنصرا إشكاليا، يستمدّ عجائبيته من غموضه الباهر، وسلطته، وقدرته اللامحدودة على بثّ مشاعر الذعر، والتوجّس ... وهو التوجّس نفسه الذي سنصادفه ... في كثير من النماذج الأدبية المعاصرة، الغربية والعربية، على حدّ سواء"³². ففي رواية "اغتنصاب محظية" يبرز الحلم في مواضع في الرواية لتحقيق هذه الغاية، أين يطعننا زايد على قدره " سعيدة أُمي بالحلم، خاصة بعد أن فسّرت لها صاحبها الحلم الذي رافقه، و الذي رأته فيه أنها أنجبت طفلين رائعين، أحدهما كبير الحجم والآخر ضئيل، ... ويعني " زايد، زايد الخير علينا زايد !"، فسّرتها التادة أنّ أحد الولدين يبشر بالخير، وستسميه " زايد " (...)"³³ تحقق الحلم بولادة الأخوين التوأمين بوستة القوي الطموح المهووس بالحكم، وزايد الذي نال نصيبا كبيرا من اسمه فبقي تابعا إلى أن قرر بوستة التخلص منه بالبر.

ب. 2 المسخ :

التفت التوائون المغاربة إلى الأسطورة، باعتبارها حقلا غنيا بأنواع المسوخ " المتجلى في علاقة الكائن البشري / الأسطوري بالماورائي / الغيبي"³⁴، فاشتغلوا على امتساح الشخصيات في رواياتهم التي اعتمدت العجائبي إمّا تيمة مهيمنة على النص، أو عنصرا ممّا يقوم إلى جانب عناصر أخرى في توجيه الأفعال والأحداث، لينتجوا كائنات مختلطة كالأصبع زايد وشجرة الأصابع في رواية (اغتنصاب محظية).

كان لجوء الكتاب المغاربة إلى تصوير هذه الامتساحات عن وعي يهدف رسم حالات التشوّه، تشوّه الواقع والإنسان و الفضاء " ذلك لأنّ المسخ يؤلّف شكل إدراك وتمثّل للقدر الشخصي للإنسان في أكثر اللحظات تأزّما في حياته"³⁵ وعلى هذا الأساس يرى شعيب حليفي أنها تحمل حملتها الدلالية والاجتماعية، فتؤدّي وظيفتها الأدبية المتعلقة بتوليد الرعب والترّدّد في القارئ والشخص ذاته³⁶. عائشة الأصفر عبر الاشتغال على امتساح شخصية زايد واقع الإنسان العربي المتأزم نفسيا التواق إلى التحرّر، كما جسدت من خلال شخصية دمية الحنين إلى الماضي والخوف من الحاضر والمستقبل.

ج. البناء الأسطوري للرواية:

يقوم على المزج بين مستويين متقاطعين، مستوى الواقع ومستوى الأسطورة (الواقع والمختل)، إضافة إلى الثنائيات المتقاطعة - على النحو الذي تتسم به البنية الأسطورية بعامّة -، التي تهض كما رأى "كلود ليفي ستروس" على مجموعة من البنى الضدية، أو ما أسماه بـ"الأزواج المتقابلة" (dichotomies). اشتغلت الرواية الحدائث على البناء العام للأسطورة كما تبنت البنى الضدية لخلق عالم خاص يقع على تخوم الواقع والخيال يخرج المتوقع فيشكل صدمة للشخصية والقارئ.

يشكل زايد وبوستة ثنائية تتعارض شكلا ومضمونا، أجادت الكاتبة استغلالها لتخلق جوا مثيرا ومرعبا، يخلط أوراق القارئ ويشوّش إدراكه، في انتقاله من مشهد إلى آخر من عالم الواقع ممثلا في شخصية بوستة، واللاواقع ممثلا في زايد الأصبع، ثم زايد في حالات هذيانه.

ويبدو البحر أحد أهم المحفزات الأسطورية في الرواية، فإن كان يحمل دلالة الخصوبة في الميثولوجيات المختلفة، فهو في النص الروائي رمز الخصوبة والذاكرة في الوقت نفسه، ويشكل في بعضها ثنائية متقاطعة، أمّا في رواية (اغتنصاب

محظية) فهو رمز الجمال الذي كثيرا ما أشار إليه وتغنى به بطل الرواية زايد، لكنه كان مصدر رعب للمحظية وسكانها ومركز نفوذ الساحرة وآلهة البحر.

هذا وثمة محفزات أسطورية أخرى في الرواية :

كانبعث تاريخ الأندلس المكثوم على يد ولادة، عبر نقي نباقي، في رحلة عجائبية برفقة زايد ارتأت الكاتبة أن تختمها برسالة مشفرة على لسان ولادة تتم عن حزن دفين وغصة كبيرة تقول : " إننا المولى الذين يتيهون في الشوارع ولا وطن لهم . أما تراهم يعيدون بناء مدينتهم؟ أنظر إلى هذا الدهليز. إنه تمر من مزارتهم السرية، ينحتونه تحت البحر، أسفل المضيق . يصنعونه لكم طريقا للعودة .³⁸ وتطلق ضحكة هستيرية عجيبة...".

يتعامل الروائي المغاربي عموما مع مخلفات التفكير الأسطوري التي لا زالت قائمة ولم تهددها سطوة العلوم المختلفة، حيث يتم اللجوء إلى هذا النمط من التفكير كلما وقف الفرد عاجزا ولم تسعفه أدواته ونظرياته العلمية الحديثة، أو كلما عانى من ظلم وجور وكبت للحريات، إذ كثيرا ما كان اللجوء إلى الأسطورة والخرافة، منتقسا وهروبا من واقع معيش بالنسبة للمحكومين، وأداة طيعة للسيطرة على الشعوب من قبل الحكام. وعليه كان رهان الروائي المغاربي، الكشف عما يحويه التفكير الأسطوري وكذلك الخرافات من مغالطات، تسهم بشكل كبير في تجهيل الشعوب، وإحباط عزيمتها في المطالبة بالتغيير وإدراك حقيقة ما يجري على الساحتين الاجتماعية والسياسية بشكل خاص .

من هنا اتسمت الرواية المغاربية التي طعمها كتابها بالأسطورة والخرافة، بطابعها التقدي الساعي إلى فضح المستور وقول المسكوت عنه، وهي " تناقض في نفس الوقت الفكر الأسطوري"³⁹ ما يعني تحويل الأسطورة إلى موضوع للتأمل عبر أسطورة الواقع مما يتطلب إعادة إنتاج قوانين تهدم الحدود الفاصلة بين ما هو واقعي، وما هو متخيل، فيتم تجاوز الواقع الموضوعي الخاضع للعقل، في محاولة لتملك الواقع الذي نغنيه تملكاً جمالياً قادرا على إعادة النظام إلى واقع محتشد بالفوضى، والعناء، وقيم السلب والانتهاك⁴⁰ وهو ما جسده عائشة الأصفر في " اعتصاب محظية" بتجاوزها كل عقل وكل منطق بوعي، وبنظرتها النقدية لهذا الواقع، واقع الإنسان العربي بشكل عام .

خاتمة:

الأسطورة مرجع جمالي وفكري وظفته الرواية المغاربية بوصفه عنصرا فعالا في بناء رؤية الروائي الإبداعية والفكرية، فقد أظهر الروائيون المغاربة وعيا كبيرا بخصوصية التعامل مع الأساطير المتنوعة وأدركوا قدسيتها ومكانتها، سواء في المجتمعات التي أنتجتها وفي المجتمعات المعاصرة، وانعكس ذلك على أعمالهم فكان هذا الجانب الموهل في كل ما هو خارق ومذهل ومميز للأسطورة، أهم رافد من روافد الرواية العربية بشكل عام والمغاربية بشكل خاص.

حاول البحث تحديد ملامح الأسطورة في الرواية المغاربية من خلال نص روائي للكاتبة الليبية عائشة الأصفر ليصل إلى النتائج التالية:

لم تمثل الأسطورة لمعتنقيها والمعتقدين بها مجرد قص، بل حقيقة معاشة جسدت أحداثها آلهة وأنصاف آلهة في أمكنة تختلف عن أمكنتنا المألوفة وأزمنة ذات خصوصية تختلف عن زماننا الكرونولوجي. لا تزال الكثير من السلوكات الأسطورية تعيش أمام أعيننا على الرغم من الثقل الكبيرة التي عرفها فكر الإنسان المعاصر.

أكتسبت الأسطورة معنى حديثا، فخرجت عن طابعها الغيبي الذي تحكمه الآلهة أو أنصاف الآلهة، أو الشخصيات الخارقة واقتربت من حياة الفرد فظهرت في تعاملاته وسلوكاته اليومية.

في إطار التمييز بين الأسطورة الدينية والأسطورة الأدبية أعادت الرواية المغاربية المشهد الأسطوري القديم عبر تقنية التناص إما عن طريق التضخيم أو التقزيم، أو عن طريق المحاكاة أو المعارضة كما وظفت الأسطورة بمحولاتها الرمزية من خلال أسطورة الشخصيات إضافة إلى أسطورة التاريخ والواقع.

- يراهن الروائي المغاربي على كشف ما يحويه التفكير الأسطوري وكذلك الخرافاتي من مغالطات، تسهم بشكل كبير في تجهيل الشعوب، وإحباط عزمها في المطالبة بالتغيير أكثر من كونها وسيلة للهروب من واقع مرير إلى عالم مثالي يحلم به الأفراد.

- استعانت عائشة الأصغر بأساطير قديمة وحديثة للكشف عن الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي لليبيا ما قبل الثورة والمؤامرة التي حيكّت ضدها بتأمر من عمالة السلطة وتخاذل الشعب وسذاجته.

- تجلت ملاحم الأسطورة في أشكال أهمها: استنثار أحداث أسطورية حيث استدعت الزوائية أسطورة الإخوة الأعداء السومرية وأسطورة النساء الأمازونيات، كما وظفت الأشباح كعنصر إدهاش مثير للحيرة والتردد، استدعاء رموز أسطورية، البناء الأسطوري للرواية ويقوم على المزج بين مستويين متقاطعين، مستوى الواقع ومستوى الأسطورة (الواقع والمتخيل)، إضافة إلى الثنائيات المتقاطعة، وبعض المحفزات الأسطورية.

جمعت الكتابة في سياق واحد بين ثلاث شخصيات: إحداهما أسطورية (الآلهة) والثانية خرافية (الساحرة) والثالثة واقعية، وهو ما يحسب للروائية التي جعلتنا ننقل من المألوف إلى اللامألوف دون مقدمات.

يزخر المغرب الكبير بإرث ثقافي أسطوري محلي مهم لا يزال بكرا، لم يستفد منه الكتاب المغاربة بالقدر المناسب، يتطلب التفاتة جادة لكسر نمطية السرد التقليدي، وإثراء الرواية جاليا ودفعها إلى العالمية انطلاقا من خصوصيتها المحلية، وهو ما حققه الروائي الليبي إبراهيم الكوني باشتغاله على أساطير الصحراء وأساطير مجتمع الطوارق بكل ما تحويه من رموز وألغاز تستهوي المتلقي وتأسره وتنقله إلى عوالم غير مألوقة.

وتتبع عائشة الأصغر خطى الكوني فكان عملها ممبزا، كونها لم تركز على أسطورة واحدة بل وظفت أشكال مختلفة من الإرث الأسطوري والشعبي المحلي والعالمي، واستفادت من جماليات الرمز الأسطوري وقيمه الفكرية. مع ذلك ورغم توجه الروائيين المغاربة نحو استلهم الأساطير في منجزهم الروائي يبقى جزء مهم منها غير مطروق يستدعي الاهتمام والبحث.

قائمة الإحالات:

- 1 - لؤي خليل: العجائبي والسرد العربي النظرية بين التلقي والنص، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 1، 2014، ص 26.
- 2 - ينظر لؤي علي خليل: العجائبي والسرد العربي، مرجع سابق، ص 128.
- 3 - نضال الصالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط 1، 2001 ص 12.
- 4 - نضال الصالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص 12.
- 5 - ينظر: سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبنانية، بيروت/ سوشيريس، التار البيضاء المغرب ط 1، 1985، ص 206.
- 6 - عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، دراسة لأشكال الأداء في الفنون التعبيرية الشعبية في الجزائر، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 146.
- 7 - نضال الصالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص 12.
- 8 - ايريك فروم: اللغة المنسية، دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة والأساطير، تر: محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط 2، 2015، ص 19، 20.
- 9 - ميشيل زيرافا: الأسطورة والرواية، تر: صبحي حديدي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط 1، 1985، ص 5.
- 10 - أحمد شمس الدين الحجاجي: الأسطورة في المسرح المصري المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1984، ص 09.
- 11 - فراس السواح: الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والتأنيات المشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط 2، 2001، ص 27.
- 12 - سيد البحراوي: الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر، أجيال وملاحم، المكتبة الأنجلو-مصرية، القاهرة، د ت ص 127.
- 13 - سيد البحراوي: الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 128.
- 14 - ينظر فراس السواح: الأسطورة والمعنى، مرجع سابق، ص 28.
- 15 - المرجع نفسه، ص 28.
- 16 - المرجع نفسه، ص 29.
- 17 - ينظر فراس السواح: الأسطورة والمعنى، مرجع سابق، ص 34.
- 18 - ينظر Mircia Eliade: aspects du mythe, ed Gallimard, Paris, 1975, p242.
- 19 - ينظر: ebid- p242.

- 20 - ينظر : بيير شارتيه : مدخل الى نظريات الرواية، تر عبد الكبير الشرفاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001، ص 184.
- 21 - ادوارد سعيد : الثقافة والامبريالية، تر كمال ابوديب، دار الاداب، لبنان، بيروت، ط4، 2014، ص 166، 167.
- 22 - ينظر: المرجع نفسه، ص 210 211 212 .
- 23 - فراس السواح : الأسطورة والمعنى، مرجع سابق، ص 55.
- 24 - بهاء بن نوار: الواقع والممكن، دراسة عن العجائبية في الرواية العربية المعاصرة، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2014، ص 48.
- 25 - عمري بنو هاشم : التجريب في الرواية المغاربية، الرهان على منجزات الرواية العالمية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015، ص 37.
- 26 - عائشة الاصفر: اغتصاب محطية، تبر الزمان، تونس، ط1، 2012، ص 16، 17.
- 27 - عائشة الاصفر: اغتصاب محطية، مصدر سابق، ص 30.
- 28 - شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، لبنان/ منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2009، ص 123.
- 29 - ينظر شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، مرجع سابق، ص 123.
- 30 - ينظر عائشة الاصفر : اغتصاب محطية، مصدر سابق، ص 60.
- 31 - ضال الصالح : النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص 99.
- 32 - بهاء بن نوار: الواقع والممكن، مرجع سابق، ص 52، 35.
- 33 - المصدر نفسه، ص 71.
- 34 - شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية، مرجع سابق، ص 76.
- 35 - حسن المودن: الكتابة والغربة المقلقة في قصص محمد غرناط، داء الذئب 1996 نموذجاً، موقع الاتحاد الاشتراكي، www.maghress.com/alittihad/2021583، تاريخ الاطلاع: 25 أوت 2017.
- 36 - الخامسة علاوي: العجائبية في الرواية الجزائرية، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013، ص 264.
- 37 - ينظر الطاهر وعزيز: بنوية كلود ليفي ستروس، الكلام، مطبعة فضالة، المغرب، ص 99.
- 38 - عائشة الاصفر: اغتصاب محطية، مصدر سابق، ص 207.
- 39 - حميد لمحمداني : الأسطورة و الخرافة كموضوع في الرواية العربية الحديثة، بصمات، العدد 1، د ت، جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء المغرب، ص 41.
- 40 - ينظر حميد لمحمداني : الأسطورة و الخرافة كموضوع في الرواية العربية الحديثة، مرجع سابق، ص 16.
- قائمة المصادر والمراجع :**
- أحمد شمس الدين الحجاجي: الأسطورة في المسرح المصري المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1984.
- ادوارد سعيد : الثقافة والامبريالية، تر كمال ابوديب، دار الاداب، لبنان، بيروت، ط4، 2014.
- الخامسة علاوي: العجائبية في الرواية الجزائرية، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013.
- الطاهر وعزيز: بنوية كلود ليفي ستروس، الكلام، مطبعة فضالة، المغرب.
- اريك فروم: اللغة المنسية، دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة والأساطير، تر: محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط 2، 2015.
- بهاء بن نوار: الواقع والممكن، دراسة عن العجائبية في الرواية العربية المعاصرة، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2014.
- بيير شارتيه : مدخل الى نظريات الرواية، تر عبد الكبير الشرفاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001.
- حميد لمحمداني : الأسطورة و الخرافة كموضوع في الرواية العربية الحديثة، بصمات، العدد 1، د ت، جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء المغرب.
- سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبنانية، بيروت/ سوشريس، الدار البيضاء المغرب ط1، 1985.
- سيد البحراوي : الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر، أجيال وعلامح، المكتبة الأنجلو- مصرية، القاهرة، د ت.
- شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، لبنان/ منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2009.
- عائشة الاصفر: اغتصاب محطية، تبر الزمان، تونس، ط1، 2012.
- عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، دراسة لأشكال الأداء في الفنون التعبيرية الشعبية في الجزائر، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- عمري بنو هاشم : التجريب في الرواية المغاربية، الرهان على منجزات الرواية العالمية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015.
- فراس السواح : الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والتأنيات المشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط 2، 2001.
- لؤي خليل : العجائبي والسرد العربي النظرية بين التلقي والنص، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 1، 2014.
- ميشيل زيرافا: الأسطورة والرواية، تر: صبحي حديدي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط 1، 1985.
- نضال الصالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط1، 2001.
- Mircia Eliade: aspects du mythe, ed Gallimard, Paris, 1975,

